الفصل التاسع

الصوفية وطريق الإرتقاء الروحى

obeikandl.com

obeikandl.com

تختلف الأراء فى أصل تسمية الصوفية، حيث يعيدها البعض إلى إسم أهل الصفة، وهم مجموعة من المساكين الفقراء الذين كانوا يقيمون فى المسجد النبوى الشريف ويعطيهم الرسول (ص) من الصدقات والزكاة طعامهم ولباسهم. لكن الرآى الأرجح يعيد التسمية ببساطة إلى الصوف الذى كان الزهاد يلبسونة تقشفًا وزهدًا بالحياة. ولكن توجد أراء أخرى فى هذا الموضوع، فإن الجوزى فى كتابه تلبيس إبليس ينسب الصوفيين إلى (صوفة بن مرة) والذى نذرت له والدته أن تعلقه بأستار الكعبة، فأطلق إسم (صوفى) على كل من ينقطع عن الدنيا وينصرف إلى العبادة فقط. ولكن أرجح التسميات ما اختاره طائفة كبيرة من العلماء من ان هذه التسمية ترجع إلى الصوف حيث كان شعار رهبان أهل الكتاب الذين تأثر بهم الصوفيين الأوائل. يظهر الفكر الصوفى بارزًا فى أقوال الحارث المحاسبى، والذى يعتمد على مقام الإحسان المذكور فى السنة، وهو أن تعبد الله تعالى كأنك تراه، ولهم فى ذلك تعريفات مفيدة ومن حيث الإصطلاح يجمع علماء التصوف فى كتبهم ما يقارب الآف من التعريفات التى تضع له الحدود وترسم له المعالم وتفسره وتشرحه وتأصله وكلها يدور حول تزكية القلوب، بمعنى تطهيرها من جميع ما يتعلق بها من الأسباب والعلائق الدنيوية والنظر للأمور من حيث لا وجود مستقل بذاته عن الله، ولا قدرة لإنسان ولا قوة إلا من حيث يسر الله له وهذا يقودهم لمبدأ ألا وجود حقًا سوى لله. لكن نقطة الخلاف مع بعض الفرق الإسلامية الأخرى تكمن فى مدى شرعية الطرق والأدوار التى يمارسها المتصوفة.

الطرق الصوفية

تؤلف الصوفية مجموعة من الطرق والأذكار التى يتلوها المريد فى أوقات مختلفة حسب توصيات مشايخ الطريقة بغية تنبية النفس وتطهيرها ليرتقى فى المراتب الروحية التى يمكن أن توصلة إلى درجة الولاية. الصوفية أو التصوف ليست دين أو مذهب، إنما هى منهج أو طريق يسلكه الإنسان للوصول إلى الحقيقة الإلهية كما يعرفها أصحابها. أما معارضيها فيعتبرونها ممارسة تعبدية لم تذكر لا فى القرآن ولا فى السنة ولا يصح إى سند لإثباتها، وعلية فهى تدخل فى نطاق البدعة المحرمة.

تقوم الصوفية على فكرة الولاية، حيث يعتبر الولى عارفًا بالله الذى يمنحه كرامات تماثل معجزات الأنبياء مثل شفاء المرضى وكشف الغيب. وهذا ما عرضها فى بداية القرن الماضى لهجوم المثقفين فى الغرب بإعتبارها ممثلة للثقافة الدينية التى تنشر الخرافات. ثم بدأ مع منتصف القرن الماضى الهجوم من قبل أتباع المدرسة السلفية بإعتبارها بدعة دخيلة على الإسلام.

إنتشرت حركة التصوف فى العالم الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقًا وممارسات مميزة معروفة بإسم الصوفية. ويتوخى المتصوفة تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الحقيقة الإلهية بالكشف والمشاهدة والتأمل.

النشأة والتاريخ

إن الصوفية مثلهم مثل أى فرقة إسلامية أخرى تاخذ مرجعيتها من العصر النبوى الذى يعتبر المرجع الأساسى الشرعى فى مجمل التاريخ الإسلامى. وبالتالى فإن كل طريقة صوفية تربط أورادها بسند رجال يعيدها إلى أحد

الصحابة أو إلى الرسول (ص) بذاته. فى الحقيقة إن مصطلح الصوفية لم يظهر إلا فى بدايات القرن الثالث الهجرى ولكن جذوره يمكن تتبعها قبل ذلك.

بشكل عام يمكن القول أن معظم الحركات الفكرية والسياسية فى الحضارة العربية الإسلامية تعود لإمتزاج عدة عناصر مختلفة تواجدت فى منطقة المشرق العربى الممتد من منطقة الرافدين إلى وادى النيل. فإضافة إلى العنصر الإسلامى الأصيل الذى يتألف من النصوص الشرعية والعادات الاجتماعية التى جاء بها الإسلام، يوجد بقايا الموروث الجاهلى الذى بقى كامناً والموروث الفارسى المتمركز أساساً فى بلاد الرافدين والموروث اليونانى الرومانى إضافة إلى الموروثات من الشعوب المحلية السامية وغير السامية فى هذه المنطقة الواسعة التى شهدت مع العصر الذهبى للدولة العباسية عصر تدوين شمل إندماج هذه الثقافات أو صدامها.

من هنا ينطق هذا التركيب على نشأة الصوفية التى بدأت كسلوكيات عامة يغلب عليها طابع الزهد فى الدنيا والطمع بالآخرة: تندرج هذه السلوكيات ضمن تيارى زهد رئيسيين:

١ ـ تيار يمثله إئمة من أهل السنة والجماعة تميل إلى تفضيل نصوص الترهيب والترغيب وتحض على الزهد فى الدنيا (يمثله الحسن البصرى والحارث المحاسبى).

٢ ـ تيار ذو أصول فارسية يعتبر إحياء لموروث سلوكى فارسى قديم، يعتمد على هجر بعض الناس للدنيا فى سبيل تحقيق زعامة دنيونية والحصول على أتباع ومؤيدين (أهمهم حبيب العجمى الفارسى).

ثم ظهر تيار فى الكوفة ذو توجه فكرى ذو جذور عرفانية أو ما يدعو «بالقنوصية»، وأهم رواده (جابر بن حيان وأبو هاشم الصوفى)، إلا أن هؤلاء الرواد لا يمكن حسبانهم ضمن التصوف الإسلامى. ومن رواد التصوف أيضًا

ضمن تيار الزهد الإسلامى هو (الجنيد أبو القاسم بن محمد) والذى توفى عام ٢٩٧ هجريًا، والذى كانت له أراء خاصة فى التوحيد والنفس، ثم ظهر (منصور الحلاج) الذى كان أول من صرح بالحديث عن الإتحاد والحلول، لتنغمس الصوفية بعدها فى الغنوصية ، وتتعمق فيها.

شهدت الصوفية بعد ذلك قفزة جديدة بالتحول الجذرى عند «الإمام الغزالى» الذى تحول من مدرسة المتكلمين إلى المدرسة الصوفية، وكان كتابه (إحياء علوم الدين) محاولة لتأسيس العلوم الشرعية بصياغة صوفية، تلاه إعتماد الكثير من الفقهاء أبرزهم «عبد القادر الجيلانى» للصوفية كطريقة للتربية الإيمانية، ويبدوا أن الجيلانى وتلاميذه الذين أنتشروا فى كافة بقاع المشرق العربى عادوا بالتصوف إلى الجذور الإسلامية بالتركيز مرة أخرى على تعليم القرآن والحديث مقتدين بأشخاص مثل «الحارث المحاسبى»، والدليل على ذلك أن «ابن تيميه» رغم الهجوم الضارى الذى شنه على الصوفية فى عصره، يمتدح أشخاصًا مثل الجيلانى وأحمد الرفاعى. وينسب بعض المؤرخين لهذه المدارس الصوفية المنتشرة دورًا كبيرًا فى تأسيس الجيش المؤمن القوى الذى ساند «صلاح الدين» فى حربه ضد الصليبيين.

بعد حكم الأيوبيين مباشرة، عادت الصوفية للافكار الفلسفية الميتافيزيقية التى تأسست أكثر وترسخت ضمن الصوفية على يد «محى الدين بن عربى» الذى قام فى كتبة وأهمها (نصوص الحكم والفتوحات المكية) بتذليل الكثير من المعارف والتى كانت عصية الفهم فضلًا عن إثبات مطابقتها للشرع.

الفكر الصوفى

رغم الإستناد المباشر والصريح لكتب الصوفية على الأصول الشرعية لأهل السنة من قرآن وأصول سنة فى تدعيم أفكارها، فإن الباحثين فى بنية الفكر

الصوفى يلاحظون دائمًا تشابهًا بين الفكر الصوفى والفكر الشيعى، وكثيرًا ما يلجأون للمقارنة بين إمام الشيعة وولى الصوفية.. فولى الصوفية يرث العلم عن الأنبياء، وهو الذى يملك الحقيقة تمامًا مثل الإمام الشيعى. حتى أن بعض كتب الصوفية تمنح الأولياء عصمة مشابهة لعصمة أئمة الشيعة، لكن هذا التشابه غير مستغرب عندما نعرف أن هذه الأفكار تأتى أساسًا من منبع واحد يتمثل فى الأسرار الغنوصية الوفانية أو ما يعرف بالهرمسية، وتكتمل بناء هذه الأفكار الفنوصية عند الصوفية بشكل ملفت فى كتب «محى الدين بن عربى» الذى يتحدث فى كتبه عن العوالم السبعة التى يقوم البعض بتشبيهها بنظرية الأفلاك أو العقول السبعة عند أخوان الصفا الإسماعيلية.

هذا الأمر أيضًا هو ما يدفع بعض الباحثين لاعتبار الصوفية المنافس السنى للشيعة على الأفكار الغنوصية، وهذا ما يشرح العداء فى البدء بين الصوفية والشيعة، فالصوفية أيضًا نافست الشيعة فى الإنتساب لآل البيت وتشريفهم معطية اعتبارًا كبير للإمام على وأولادة.

العبادات والطرق الصوفية

طرق الصوفية

تعتمد الصوفية بشكل عام على مجموعة ممارسات تقوم على نبذ الدنيا والعمل والتفرغ التام للطاعة والعبادات بالإضافة إلى مجموعة من الأوراد والأذكار يتوارثها الصوفيون من شيخ إلى آخر، وإتباع شيخ شىء أساسى فى الفكر الصوفى (من لا شيخ له فالشيطان شيخه) ومن أهم الطرق الصوفية:

١ ـ الطريقة النقشبندية وتنسب إلى بهاء الدين نقشبند.

٢ ـ الطريقة الجعفرية وتنسب إلى الشيخ صالح الجعفرى الحسينى شيخ الأزهر الشريف.

٣ ـ الطريقة الرفاعية والتى تنسب إلى الشيخ أحمد الرفاعى.

٤ ـ الطريقة القادرية وتنسب إلى الشيخ عبدالقادر الجيلانى.

٥ ـ الطريقة الشاذلية وتنسب إلى الشيخ ابى الحسن الشاذلى.

٦ ـ الطريقة التيجانية.

٧ ـ الطريقة الأحمدية وتعرف أيضًا بالبدوية، نسبة للسيد أحمد البدوى الحسنى المدفون بطنطا.

التربية الصوفية

تركز المدارس الصوفية بشكل خاص على مبادئ تربية الروح والنفس وتنمية روح المراقبة والمحاسبة عند الأفراد، كما تستفيد من كثير من الطرق الجماعية لممارسة العبادة لتقوية الأواصر بين أتباع الطريقة المريدين، هذا التركيز على الممارسات العبادية الجماعية والشعور بالسعادة من جراء التقرب من الله يجذب الكثير من الناس بما يمنحه لهم من إطمئنان نفسى ويجعل الصوفية ذات شعبية كبيرة، لذلك كان للصوفية دورًا كبيرًا فى نشر الإسلام لاسيما فى المناطق البعيدة مثل أفريقيا حيث تمتلك الصوفية مرونة تمكنها من إقتباس بعض الممارسات والطقوس المحلية الأفريقية.

تقوم الكثير من الطرق الصوفية بتشكيل أساس التنظيمات الاجتماعية فى الكثير من الدول الإسلامية، وهى إن قل نفوذها فى معظم الدول العربية إلا أن تأثيرها فى مناطق مثل الهند وباكستان ومعظم الدول الأفريقية المسلمة مازال كبيرًا.

مصادر التلقى عند الصوفية

لقد شذ الكثيرون ممن ينتسب إلى التصوف عن حقيقة وأصل التصوف

وصاروا يعتقدون بأشياء مما يخالف إعتقاد المسلمين، وهذا سبب شرفًا كبيرًا وتناحرًا بين الصوفية حيث قام المتصوفة الذين إلتزموا أصل التصوف بالرد عليهم والتحذير منهم. ومما يعتقدوه بعضهم:

الكشف

ويعتمد الصوفية الكشف مصدرًا وثيقًا للعلوم والمعارف، بل تحقيق غاية عبادتهم، ويدخل تحت الكشف الصوفى جملة من الأمور المتعلقة بالروح الخالص، منها:

١ ـ النبى (ص) ويقصدون به الأخذ عنه يقظة أو منامًا.

٢ ـ الخضر (علية السلام) وقد كثرت حكاياتهم عن لقياه، والأخذ عنه أحكامًا شرعية وعلومًا دينية، وكذلك الأوراد، والأذكار والمناقب.

٣ ـ الإلهام سواء كان من الله تعالى مباشرة، وبه جعلوا مقام الصوفى كما يذكرون فوق مقام الرسل حيث يعتقدون أن الولى يأخذ العلم مباشرة عن الله تعالى.

٤ ـ الفراسة والتى تختص بمعرفة خواطر النفوس وأحاديثها.

٥ ـ الهواتف من سماع الخطاب من الله تعالى، أو من الملائكة، أو الجن الصالح، او من أحد الأولياء، أو الخضر، أو إبليس، سواء كان منامًا أو يقظة أو فى حالة بينهما بواسطة الأذن.

٦ ـ الإسراءات والمعاريج ويقصدون بها عروج روح الولى إلى العالم العلوى، وجولاتها هناك، والإتيان منها بشتى العلوم والأسرار.

٧ ـ الكشف الحسى بالكشف عن حقائق الوجود بإرتفاع الحجب الحسية عن عين القلب وعين البصر.

٨ ـ الرؤى والمنامات وتعتبر من أكثر المصادر اعتمادًا عليها حيث يزعمون أنهم يتلقون فيها عن الله تعالى، أو عن النبى (ص) أو عن أحد شيوخهم لمعرفة الأحكام الشرعية.

٩ ـ التلقى عن الأنبياء غير النبى (ص) وعن الشيوخ الراحلين.

الأفكار والمعتقدات

ـ يعلن المتصوفة حاليًا بمعظمهم إعتقادهم حسب مبادئ العقيدة الأشعرية التى إنتشرت وسادت كمذهب عقيدى رسمى لأهل السنة والجماعة قبل إعادة إحياء الحركات السلفية لرفض أفكار التأويل الفلسفية، وبالتالى فإن كتب المتصوفة الحديثة لا تخرج عن العقيدة الأشعرية والماتريدية، رغم إنهم ينبذون كتب «ابن عربى السهروردى» التى تتهم من قبل الحركات السلفية وبعض الباحثين المعاصرين بأنها تتضمن ما يفيد بعقائد الحلول ووحدة الوجود، لكن المتصوفة يقولون أن هذه الكتب ليست فى متناول العوام (والعوام فى نظر المتصوفة هو كل من لم يتمرس بالصوفية وممارستها) فهم غير قادرين على تذوق المعانى التى لا تتجلى إلا لمن حصل على الكشف الإلهى، بالتالى فهم وحدهم من يمتلك حق التأويل لهذه الكتب والمقولات للشيوخ الكبار مثل ابن عربى والسهروردى.

ـ النقطة الثانية التى ترد على لسان بعض المتصوفة هى تفضيل مرتبة الولاية على مرتبة النبوة لما فى مرتبة الولاية من إتصال بالذات الإلهية، وفى مرتبة إتصال بالبشرية.

ـ وفى الأولياء يعتقد الصوفية عقائد شتى، منهم من يجعلون الولى يأخذ مباشرًا من الله بدون أى واسطة، ويوهب من الله تصرفاتة المادية والروحية،

فهو يتصرف فى الكون بإذن الله. ولهم تقسيمات، والدرجات للولاية كما فى أى مجال «وفضلنا بعضهم على بعض»، فهناك:

الغوث ـ الأقطاب ـ الأبدال ـ النجباء

ـ يعتقدون أن الدين شريعة وحقيقة، والشريعة هى الظاهر من الدين، وإنها الباب الذى يدخل منه ليكون مسلمًا، والحقيقة هى الباطن الذى لا يصل إليه إلا المؤمن الصادق، وهناك درجات مثل الصديقين والشهداء والصالحين والأخيار.

ـ التصوف فى نظرهم طريقة وحقيقة معًا.

ـ لابد فى التصوف من التأثير الروحى، وهذا ما يهمنا هنا، فهم يعتقدون فى التأثير الروحى بالإنسان الذى لا يأتى إلا بواسطة الشيخ الذى أخذ الطريقة عن شيخه.

ـ يتحدث الصوفيون عن العلم اللدنى الذى يكون فى نظرهم لأهل النبوة والولاية، كما كان ذلك للخضر عليه السلام، حيث ذكر القرآن: «وعلمناه من لدنّا علمًا».

ـ بسبب الروحانية التى تميز طرق الصوفية وإعتمادها على علوم الباطن وإرتباطها بكتابات الهرمسية، كل هذا جعل منها غطاء مناسبًا للكثير من المشعوذين ومحترفى السحر الأسود.

ـ لقد أجمعت كل الطرق الصوفية على ضرورة الذكر، وهو عند النقشبندية لفظ الله مفرداً، وعند الشاذلية لا إله إلا الله، وعند غيرهم مثل ذلك مع الإستغفار والصلاة على النبى، وبعضهم يقول: هو هو، بلفظ الضمير. ولابد من التامل الروحى وتركيز الذهن فى الملأ الأعلى، وأعلى الدرجات لديهم هى درجة الولى.

ـ من مشاهير علماء الصوفية من أهل السنة: حسن البصرى، عبدالقادر الجيلانى، ابى حامد الغزالى، الشيخ محمد بن خفيف الشيرازى الشافعى، الشيخ عز الدين بن عبد السلام المالكى، النووى، الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، منصور الحلاج، ابو يزيد البسطامى، الشيخ ابن النقيب، ابى حيان الأندلسى، قطب الدين القسطلانى، الحافظ جلال الدين السيوطى.

مولانا جلال الدين الرومى والتصوف والطريق الروحى للتصوف

نذكر هنا عن كتاب المستشرفة الفرنسية القديرة «إيفا دوفيزاى سئيروفيتش» عن جلال الدين الرومى الذى أصدرته عام ١٩٧٨:

١ ـ مولده، حياته، طريقته، أثاره

فى عصر كان يمور بالصراعات والإضرابات الداخلية والخارجية، ولد جلال الدين الرومى، وكانت ولادته سنة ١٢٠٧م فى مدينة «بلخ» التى نسب إليها كبار العلماء والفلاسفة والفقهاء، كالفردوسى وابن سينا والغزالى. وقد غادرها أبوه «بهاء الدين ولد» الملقب بـ«سلطان العلماء» ـ وهو صوفى وعالم دين ـ سنة ١٢١٩م هربًا من الغزو المغولى القادم من الشرق الذى دمر المدينة بعد عام وأتى عليها.

توجه بهاء الدين إلى مكة لأداء فريضة الحج، وفى نيسابور، التقى الشاعر الصوفى الشهير فريد الدين العطار النيسابورى، الذى أهدى إلى جلال الدين الرومى كتاب «أسرار نامه». وظل الرومى معجبًا بالشاعر الصوفى طوال عمره، وكان يردد القول: «لقد إجتاز العطار مدن الحب السبع، بينما لا أزال أنا فى الزاوية من دهليز ضيق». كان جلال الدين يدعى عادة ب «مولانا»، أطلق عليه هذا اللقب والده بهاء الدين منذ كان صغيرًا، وكذلك كان ابنه «سلطان ولد»

يخاطبه، وبهذا اللقب عرف بتركيا وفى أصقاع العالم الإسلامى كافة. أما «الرومى» فهى نسبة إلى إقامته فى الأناضول بتركيا.

تتلمذ الرومى على يد برهان الدين محقق الترمذى، ثم توجه إلى حلب للدراسة، ومنها إنتقل إلى دمشق، وكان الشيخ «محى الدين بن عربى» يمضى بها السنوات الأخيرة من عمره. ويروى أن أبن عربى رأى الرومى من قبل يمشى خلف والده بهاء الدين، فقال: «يا سبحان الله! بحر يمشى خلف بحيرة!».

عاد جلال الدين إلى قونية ، فإستقر فى مدرسته وتولى بها تعاليم الشريعة ومبادئ الدين والتوجية الروحى، حتى عرض له حادث غير مجرى حياته وجعله صوفيًا محترقًا بالمحبة الإلهية، كما عبر عن حاله بالقول: «كنت نيئًا، ثم أنضجت، والآن أنا محترق».

ترجع بداية ذلك عندما إلتقى جلال الدين الرومى بشمس الدين التبريزى، الدرويش الجوال، الذى وصل إلى قونية سنة ١٢٤٤م وأقام فى أحد خاناتها منقطعًا إلى نفسه، وذات يوم، تعرض شمس لموكب الرومى ومريديه، وجرت بينهما محاورة قصيرة أغمى بعدها على «مولانا»! وعندما إستعاد وعيه، إصطحب شمسًا إلى المدرسة، وهناك إعتزلًا الناس فى خلوة لمدة أربعين يومًا، صار بعدها شمس الأستاذ الروحى للرومى، الذى ظل يحتفظ لأستاذه طوال حياته بحب وعرفان للجميل لا حدود لهما. وبلغ من تأثير «شمس تبريز» إنه إستحوذ على روح الرومى ومشاعره ولم يعد يصبر عنه، مما دفع مريديه، كما أشيع، إلى إغتياله سنة ١٢٤٧م.

بعد إختفاء شمس، أنشاء الرومى الحفل الموسيقى المعروف بـ«السماع»، ثم نظم فى ذكرى شيخه وأستاذه الروحى من مجموعة من الأناشيد حملت اسمه: ديوان شمس تبريزى، وهى مجموعة أناشيد، وقصائد تمثل الحب والأسى، وإن كانت فى جوهرها تنشد الحب الإلهى المقدس. إختار الرومى «حسام

الدين جلبى» أستاذًا لمريديه، وأضفى عليه قدرًا عظيمًا من الإحترام والتبجيل. وقد إقترح حسام الدين أن يؤلف الرومى رسالة شعرية تتضمن أراءه وتعاليمه، فأجابه إلى طلبه وبدأ بنظم المثنوى. فكان الرومى يرتجل وحسام الدين يكتب الأبيات وينشدها. وقد إستمر ذلك إلى أن وافت المنية الرومى سنة ١٢٧٣م.

طريقة «الدراويش الدوارين» (المولوية)

أسس جلال الدين الرومى فى تركيا الطريقة المولوية، ونظمها بعد وفاته ابنه الأكبر «سلطان ولد». ومن سماتها وخصائصها التى عرفت بها الرقص المعروف أو السماع، الذى أعطى الأعضاء إسم «الدراويش الدوارين» الذى عرفوا به فى الغرب. كانت قونية المقر الأول للطريقة، ومنها انبعثت التكايا التى هى بمثابة فروع للمركز، وصار السلاطين والأمراء هم الذين يبنون التكايا منذ القرن العاشر الهجرى. وفى عهد السلطان سليم الثالث، شهدت الطريقة أوج مجدها وإنتشارها. لم تكن المولوية تميز بين الأديان والمذاهب، بل ترفض التعصب وتنبذه. وكان أعضاؤها ينطلقون فى جماعات إلى القرى لإسعاف الفقراء وإقامة حفلات السماع التى تعزى القلوب الحزينة.

لم تكن الطريقة فى بداية حياة الرومى مركزية تمامًا، فهناك المقر فى قونية، وله فروع من التكايا فى المناطق الأخرى. وكانت بطانة الرومى تتألف من الفنانين والحرفيين والصناع المهرة الذين كانوا يقومنون بالأعمال كلها. وبدءًا من القرن (السادس عشر للميلاد)، تغيرت الطريقة، وأصبح التنظيم مركزيًا، وتولت الأوقاف تنظيمه والإشراف عليه وضبط الهبات والأعطيات المقدمة له، مما أفقده طابعه الشعبى، فصار ارستقراطيًا يبتعد شيئًا فشيئًا عن روح مؤسسه. ويبدو أن خوف السلاطين العثمانيين من مواقف بعض الفرق الصوفية جعلهم يدعمون المولوية فى مواجهة الحركات والفرق الأخرى. ومن هنا أصبحت المولوية فى القرن الثامن عشر جزءًا من مؤسسات الدولة العثمانية.

وفى عام ١٩٢٥م، قمع مصطفى كمال (اتاتورك) كل الطرق الصوفية فى تركيا، فأصبحت تكية حلب مركزًا للتكايا الأخرى بعد قونية، ثم إستولت الأوقاف التركية على ممتلكاتها، وتحولت أكثر التكايا إلى متاحف. ومع ذلك مازالت هناك مراكز مولوية فى مصر وقبرص وليبيا وغيرها.

تأثير الطريقة المولوية

أنتشر تأثير الطريقة المولوية فى رقعة شاسعة من الأرض، تمتد ما بين أذربيجان إلى فيينا. ومع إنتشار التكايا، انتشر المثنوى وأصبح له شعراؤه المنشدون العظام، ومنهم: إبراهيم بك، سلطان ديوانى، شيخ غالب، وآخرين. كما إنتشرت الموسيقى المولوية ورقص السماع، وأثرت التقاليد الفنية للطريقة فى فنى الرسم والخط. ويعد السماع، أو الرقص الكونى للدراويش الدوارين، من أشهر فنون الطريقة المولوية. وهو طقس له رمزيته: فالثياب البيض التى يرتديها الراقصون ترمز إلى الكفن، والمعاطف السود ترمز إلى القبر، وقلنسوة اللباد ترمز إلى شاهد القبر، والبساط الأحمر يرمز إلى لون الشمس الغاربة، والدورات الثلاث حول باحة الرقص ترمز إلى الأشواط الثلاثة فى التقرب إلى الله، وهى: طريق العلم والطريق إلى الرؤية، والطريق إلى الوصال، وسقوط المعاطف السود يعنى الخلاص والتطهر من الدنيا، وتذكر الطبول بالنفخ فى الصور يوم القيامة، ودائرة الراقصين تقسم نصفى دائرة، يمثل أحدهما قوس النزول أو إنغماس الروح إلى بارئها، ويمثل دوران الشيخ حول مركز الدائرة الشمس وشعاعها، أما حركة الدراويش حول الباحة فتمثل القانون الكونى ودوران الكواكب حول الشمس وحول مركزها.

الطريق إلى التصوف

إن بداية الطريق، كما يذكر جلال الدين الرومى، تقتضى تغييرًا فى الإدراك،

وتحولًا فى المعرفة، ودأبًا فى السؤال. والبحث الذى يهدف إلى إغناء التجربة الروحية للصوفى وعروج الروح إلى ربها فى رحلة إسراء يتطلب من السالك محاولة تسلق سلم مراتب الوجود الكونى، حيث يخاطب الإنسان نفسه فيقول:

وضع أمامك سلم يمكنك من النجاة.

فى الأول كنت جمادًا، ثم صرت نباتًا.

ثم بعدئذ صرت حيوانًا، كيفَ يمكن لك أن تتجاهله؟

انظر إلى هذا الجسد المصنوع من التراب، أى كمال إكتسب،

وعندما تتجاوز شرط البشرية، لاشك فى إنك ستغدو ملاكًا.

وبعدئذ ستنتهى من هذه الأرض، وإقامتك ستكون فى السماء.

يتبين من هذه الأبيات أن السير على طريق الصوفية يتطلب لدى المولوية إعدادًا خاصًا، يخضع المبتدئ بموجبه لتدريب روحى يستمر ثلاث سنوات. فإن إستجاب لكل ما يطلب منه شيخه قبل فى الطريقة وأصبح واحدًا من اعضائها. ويقوم المبتدئ فى السنة الأولى بخدمة الناس، وفى الثانية بخدمة الحق، وفى الثالثة بمراقبة قلبه: ولا يستطيع المريد المبتدئ خدمة الناس إلا إذا نظر إليهم على أنهم أسياد وخير منه ورأى واجب عليه خدمتهم جميعًا، ولا يستطيع خدمة الحق إلا إذا تخلى عن كل غرض ذاتى سواء كان من أجل هذه الحياة الحاضرة أو الحياة الآجلة، أى التأكيد على أنه إنما يعبد الله حبًا بالله فقط، وليس فى مقدوره أن يحرس قلبه إلا عندما يستجمع أفكاره ويتخلى عن كل شاغل، بحيث يبقى فى حديث ودى مع الله فى قلبه، مواجهًا هجمات الغفلة. فإن بلغ المبتدئ تلك المؤهلات يستطيع الإرتقاء إلى رتبة المتصوف الحقيقى وليس مقلدًا.

تجربة الطريق الروحى

وخلال رحلة المريد إلى التحقق الروحى وبلوغ الفضائل التى لابد من تمثلها ونوالها، يجب عليه أن يخضع لتهذيب الطريقة فى التواضع والمحبة والإخلاص: ينشأ التواضع عن إدراك الوحدانية: فالله وحده موجود وكائن، وكل شىء سواه تابع له أو خاضع، وإذا كان التواضع يعنى موت شىء ما فى النفس وإنقباضها، فإن المحبة الروحية إنبساط يأذن للإنسان أن يحقق الوحدة مع الناس جميعًا، ويعد الإخلاص أو الصدق قمة الفضيلتين الأخريين ويبنى عليهما، وهو يعنى رؤية الأشياء على طبيعتها الحقيقية. والفضائل الروحية تماثل الآحوال، وتتصف بالسرعة والزوال، أما المقامات فهى منازل دائمة.

والأحوال مواهب، أما المقامات فهى إكتساب. وعلى هذا النحو، يرى السائل أحواله تتغير وتصير أسهل عليه. ومن أجل كل مقام يتحمله حبًا بالله راجيًا فضله، سيجازى صلاحًا وإحسانًا وقبولًا.

ذكر الله

يعد الذكر المنهج الرئيسى للتصوف. وأساسه دعاء لا يتوقف، عدا الصلوات المفروضة. وقد ذكر الرومى فى المثنوى: «إن المريد فى الطريق ينبغى له أن يدعو الله فى الخلوة حتى يصير كيانه كله صلاة. فالذكر هو المحور الأساسى للتصوف، والدعاء فى جوهره ذكر الله. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة ١٥٢)، وقال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد ٢٨).

وبحسب المريد يكون الذكر. وقد يكون فرديًا، كما يكون جماعيًا، حيث يجلس الدراويش حول شيخهم، ويبدؤون الذكر بتلاوة القرآن، ثم تلقى بعض القصائد الصوفية، ويعزف بالناى، ويتم الترنم ببعض اسماء الله الحسنى، ثم

يأخذ الحال بعض المتصوفة، فيبدأ الرقص أو السماع. وتؤدى الموسيقى دورًا هامًا فى التأثير وبلوغ تلك الحال.

الحب ونهاية الطريق

على أن كل شىء فى الصوفية يقوم على الحب ويبنى عليه. يقول جلال الدين الرومى: «الحب هو ذلك اللهب الذى عندما يتأجج يحرق كل شىء، ولا يبقى ثمة إلا الله». ويضيف العطار: «للحب ثلاثة طرق: النار والدمع والدم». ويقول صوفى آخر: «سبب الخلق الجمال، وأول الخلق الحب». والحب عند الصوفية يمثل روح الكون. وعلة الحب توق الإنسان إلى العودة إلى منبع وجوده. والموسيقى والرقص ودوران النجوم وحركة الذرات وصعود الحياة على سلم الوجود، من جماد إلى نبات، ومن حيوان إلى إنسان وملاك وما بعده، كل ذلك مبعثه الحب، الذى هو السبيل إلى إكتشاف الأسرار. والروح الذى أبعد عن حقيقتة الجوهرية يحن إلى اللقاء الذى سيظهر له أن العاشق والمعشوق شىء واحد. يقول الرومى:

جاء الحب: هو مثل الدم فى عروقى ولحمى

وقد أفنانى، وملأنى بالمعشوق،

والمعشوق تخلل كل خلية فى جسدى،

ومنى لم يبق سوى إسم، وكل شىء آخر هو هو.

إن طريق الحب فى الصوفية يؤدى إلى بلوغ السالك مرحلة الإنسان الكامل أو الإنسان الكلى، الذى هو قلب الكون والذى يكون، بتخليه عن الوجود الجسدى، قادرًا على أن يكتشف فى نفسه ذلك «الكنز المخفى»، بحسب الحديث القدسى، الذى يبحث عنه الإنسان فى مكان آخر عبثًا، بينما هو فى داخله.

التعلم بالسؤال

سبقت الإشارة إلى أن الصوفية لم يقدموا نظرية عقلانية للتصوف. فى ضوء ذلك، لم يقدم الرومى نظرية ميتافيزيقية، بل قدم منظورًا وسبيلًا للنجاة. وكان يعى أن مسئوليته هى إنقاذ النفوس من التيه، إذ يقول: «إن سمحنا لأنفسنا بأن تخلد إلى الراحة، فمن سيأتى بالعلاج لهؤلاء النيام البائسين؟» ومن هنا كان يلح على إصطحاب المرشد فى الرحلة الروحية، إذ يقول: «إختر لك شيخًا، لأنه من دون الشيخ تكون الرحلة حافلة بالمحن والمخاوف والأخطار، ومن دون مرافق ستضيع فى طريق كنت قد سلكته من قبل. لا تسافر وحدك فى الطريق». وفى التصوف يكون الرباط بين الشيخ والمريد أساسيًا، ترسخه بيعة بين إرادتين حرتين. والشيخ الحقيقى يعمل كل ما بوسعه فى سبيل مساعدة هذه النفوس «النائمة» على إكتشاف الحق المكنون فى أعماقها. وفى نهاية التأهيل الذى يقوم به الشيخ، تبدأ عين الباطن بالكشف، الذى يعد المعرفة الحقيقية الوحيدة. وإلى هذه الغاية تتوجه الطرق كلها.

مناهج التعليم الصوفى

يسمى الرومى روح الإنسان العميقة بال «الروح السامى» الذى هو حقيقة الإنسان العميقة. ولا شك أن التناغم الروحى، وتعلق الشخص بالشخص بين الشيخ والمريد، ورمزية الحكايات الأخلاقية المغزى التى تكشف عن البعد بين الإشارة المدركة والحقيقة المدلول عليها، والجدل الذى يستكشف به الطالب نفسه، والأسئلة والإجابات والحقائق التى إعتقد أنه قد جهلها، هذه جميعًا بعض من هذه المناهج أو الطرق. لتحقيق ذلك يستعمل شيوخ التصوف وسائل كثيرة لتهيئة المريد لكى «يصير على ما هو علية ومساعدته على ولادة الروح الكامن فى نفسه الباطنة».

السماع

هو طقس صوفى دينى، يبعث فى المؤدى حالًا يكون قادرًا فيه على «سماع» ذلك النداء المرسل منذ زمن من بعيد خارج الزمان، مذكرًا بعالم الألحان الأزلية. والمنطلق فى ذلك هو أن نفترض أن المريدين يتمتعون بقدرات متباينة، مما يستلزم أن يتمثل عمل الشيخ فى التكيف مع قابليتهم وطاقتهم الذاتية.

التعلم بالرمز

فى هذا النوع من التعليم الصوفى، يجب على الشيخ أن يضع نفسه فى مستوى المريد ليساعده على الظفر بالمعرفة. وعند جلال الدين الرومى، تتباين درجات النفوس تبعًا لمقدار ما «تتذكر»، ذلك لأنها وجدت حياتها الأرضية، وترتبط روحية الرقص الدينى بذلك التذكر. قال مولانا: «عندما يعرف روحك روحى معرفة تامة، فإن كلا الروحين يتذكر إنها كانًا روحًا واحدًا فى الماضى، والنفس التى تسبح الله فى هذه الدنيا تضل ذلك لأنها قد فعلته إبان وجودها الأول، وبفعلها ذلك، تذكر النفوس الأخرى بيوم اللقاء الأول».

وعلى الشيخ أن يغذى مريده بلبن المعرفة، إلى أن يصير فى مقدور المريد الإستغناء عنه. ولعل التعليم بالرمز والصور والإيحاءات أحد وسائل الشيوخ فى تدريب المريد وتوجيه مسيرة السالك الذى يجيب داعى الله نحو التدرج والإنتقال من الوهمى إلى الحقيقى، من المرئى إلى غير المرئى، ومن الإشارة إلى المدلول.

وفى ذلك يؤكد الصوفية أن قراءة القرآن وتلاوته تمنح المسلم النقى مصدرًا للروحانية متجددًا على الدوام. وإذ ينشد المريد المعنى الخفى بحدسه وكشفه الذاتى، يدرك أن القصص مثل المكيال، وأن المعنى كالحب الذى يحتويه، والعاقل من يأخذ حب المعنى ولا يتوقف عند المكيال. ويوضح ذلك قول

جلال الدين الرومى: «لم أنظم لك المثنوى لتحفظه أو تعيده، بل إبتغاء أن تضعه تحت قدميك لتستطيع الطيران». فالمثنوى هو سلم للعروج نحو الحقيقة. وإذا كان الصوفية يستخدمون التمثيلات والصور فذلك لمساعدة الإنسان ذى القلب الهائم والعقل الضعيف على إدراك الحقيقة. فالحق، كما يقول الرومى: «وصف نفسه بـ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ (الحديد ٣). وقد جلى العالم بوصفه باطنًا وظاهرًا، بحيث نستطيع إدراك المظهر الداخلى للحق ـ سبحانه ـ بباطننا والمظهر الخارجى بظاهرنا».

تطهير النفس

ولبلوغ ذلك يؤكد الصوفية أن تجلى الله للعالم لا تدركه إلا العين المطهرة. والعين المطهرة، المفتوحة، هى التى ترى أن الكون هو كتاب الحقيقة العليا، والقلب الذى صقلته الخبرات وحده يمكن له أن يغدو المرآة الصقيلة التى تعكس الصفات الإلهية. والصفة المطلوبة فى المرآة هى تشبعها بالإيمان. ولكى تعكس الصورة تمامًا، يجب أن يكون سطحها صقيلًا جدًا. يقول الرومى: «قلبى صاف كالسماء، وفى مرآة الماء ينعكس ضياء القمر». ويشبه التأثير الذى تتركه الذنوب فى القلب بالتراكم البطئ للصدأ على المعادن، أما المجاهدات فتشبه بفعلها الصقل. والقلب الطاهر، المصفى من حب الدنيا ومباهجها، فى مقدوره أن يتذكر الله ـ عز وجل، مما يعطى الوجود بعدًا آخر، ويعطى الحياة غاية أساسية هى الحنين إلى الحالة الروحية الأولى وبلوغ المعرفة الحقيقية والكلية.

حضور التصوف

من الجلى أن التصوف، وإن كان مسلكًا ذاتيًا لإكتمال مسيرة الروح وتطهيرها، فإن حضوره كان واسعًا فى مجالات الفن والثقافة والحياة الاجتماعية. وفى

الحديث: «الله جميل، يحب الجمال». ويعلق على ذلك قائلًا: «إذا كان الله يحب جمال الصور فلأنها مرآة جماله مثلما هى مرآة الوجود». ويضيف الرومى إن الجمال مقدس، وتأمله يجعل المرء يشارك فى القداسة. وقد أشار الرومى كثيرًا إلى أهمية التأثير الروحى للجمال الذى يلقى بالناظر فى متاهات الحيرة والدهشة.

وقدرة الفن على إيجاد المقدس تتمثل فى الإعادة، والإنسان المبدع يعيد الخلق بمساعدة الشعائر. وكل صلاة تعنى أن يكون الإنسان فى تناغم مع كون مقدس، يصلى فيه الطائر عندما ينشر جناحه والشجرة عندما تلقى ظلًا.

ومن المؤكد أن عددًا من الصوفية لم يكونوا مجرد نساك زهاد بل شعراء يتغنون بالمحبة الإلهية، ومنهم: عمر ابن الفارضى، العطار، سعدى، الجامى، وغيرهم ممن وضعوا العديد من الدواوين الشعرية والكتب والرسائل. كما ألهم التصوف المبدعين فى فنون الموسيقى والغناء. وكانت الطرق الصوفية جسرًا بين عقلانية المراتب الصوفية العالية وبين التدين الشعبى. وشعراء التصوف هم الذين نظموا أناشيد الحب المخلص والتضرع فى اللهجات المختلفة للجماعات، مما غدا سبيلًا لتثقيف هذه الجماعات. ومن المفيد أن نشير إلى أن الطرق الصوفية أدت مهمة كبيرة فى المجتمعات النقلية فى العالم الإسلامى، كان الناس خلالها يعيشون فى ظلال الزوايا، ويستمعون إلى تلاوة القرآن وإلى أناشيد المتصوفة ويشاهدون رقصاتهم، وبذلك تؤدى الطرق الصوفية وظيفة تثقيفية وإجتماعية، حيث لا فوارق طبقية بين أبناء الطريقة وأتباعها.

الصوفية طريق الروح فى الماضى والحاضر والمستقبل

فى نهاية الحديث عن الصوفية كطريقة وأساس سلوكى أساسى للإرتقاء

الروحى، أو أن أذكر بناء على ملاحظاتى الفكرية، أننا فى حاجة إلى ثقافة صوفية وحضارة روحية نبنيها بالسلم والتعايش والعشق الربانى، والذوبان بين يدى الله عز وجل. لا يتأثر التصوف بأى عناصر أو عقائد خارجية بالرغم من إننا نجد بعض التشابه بين التصوف والعقائد الأخرى إلا أن هذا أمر طبيعى. حيث أن الحقيقة واحدة وتلتقى فيها كل المعتقدات، والمتصوف الحقيقى ملتزم إلتزامًا تامًا بالشريعة.

يحترم المتصوفة من المسلمين كافة الأديان واتجاهات الإستنارة الروحية، فهم يبحثون عن الحقيقة الوحيدة والخالدة ألا وهى حب الله وصفاء النفس لتلقى نوره. فالتصوف هو طريق الحب فأنت لا تستطيع أن تصبح صوفيًا إذا تجنبت الحب فى منهجك، يجب أن ينفتح قلبك ويشرق بالحب. إن التصوف مأخوذ من صفاء الأسرار ونقاء الآثار. إنه نسبة إلى الصف الأول.

ويصل الإنسان بروحه إلى الصف الأول بمجاهدة النفس ومقاومته شهواتها وليس منعها، وذلك كالذكر والمراقبة، ومحاسبة النفس والزهد فى الدنيا. إن التصوف فى كلمات قليلة هو: قلة الطعام، السكون إلى الله تعالى، ضبط حواسك، مراعاة أنفاسك، التأمل، الدخول فى كل خلق سنى، والخروج من كل خلق دنئ، إتيان مكارم الأخلاق، تجنب الأخطاء الدنيئة، وإن تكون روحك شفافة نقية طاهرة ودائمًا فى المقدمة.

التصوف الحق ليس إنعزالًا عن العالم فى خلوة، أو إنصرافًا عن دنيا الناس، أو إنشغالًا بالعبادة عن قضايا المجتمع الإنسانى، وإنما هو جهاد النفس والروح فى أعلى ذراه، والعلم فى أصفى موارده، والخلق فى أعلى مثله، والقدوة الحسنة فى أبهى صورها. إنه الصدق والأمانة، والإيثار والنجدة، ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف، والتعاون على البر والتقوى.

إن المعرفة الروحية التى تكتسب عن طريق الممارسات الصوفية الروحانية النقية تجعل الروح الإنسانية مليئة بالحب والشوق لمن أهداها نعمة الوجود، فمعرفة الحق الإلهى والاقتراب من نوره لهو فريضة من أقدس الفرائض على كل نفس وروح تواقة للترقى الروحانى والاقتراب من درجة الأرواح النيرة التى هى هدف ومبتغى كل روح تقية نقية طاهرة.

obeikandl.com